حين قبّلنا الأرض ..

قصة لمكسيم غوركي

نقلها إلى العربية : منير البعلبكي

كانت * البحيرة الزرقاء الساكنة محاطةً بسلسلة من الجبال الشاهقة المكللة بثلوج أبدية ، وكانت زخارف الحدائق الهندسية الداكنة تتماوج في ثنيّات مترفة تنحدر حتى حافة المياه . أما البيوت البيضاء البادية وكأنها مبنية من السكّر ، فكانت تحدّق متأملة في صفحة الماء . وكان السكون أشبه برقاد طفل صغير .

الدنيا صباح . وعبير الأزهار يتضوّع حلواً من الكثبان . كانت الشمس قد أشرقت منذ لحظات ، وكانت قطرات الندى ما تزال تلتمع على أوراق الاشجار ونصال العشب . أما الطريق فقد بدت أشبه شيء بشريط رماديّ قُذف به في قوة الى حلقوم الجبل الصامت . وكانت معبدة بالحجارة ، ومع ذلك فقد تراءت ناعمة الملمس وكأنها المخمل .

والى جانب ركام من الحجارة غير المهذبة جلس عاملٌ من العمال ، أسود كالحنفساء . كان وجهه ينمّ عن شجاعة ورقة شعور ، وكان يحمل مدالية على صدره .

إنه يُريح يديه البرونزيتين على ركبتيه ، ويرفع رأسه ليرى الى وجه عابر السبيل الواقف تحت شجرة الكستناء ، ويقول :

— « هذه المدالية ، سينيور ، إنما مُنحتُها لقاء عملي في نَفَق سيمبلون . »

ثم يخفض طرفه ويبتسم في دعةٍ لقطعة المعدن المتلألئة على صدره .

— « أجل ، كل عمل من الاعمال يكون شاقاً حتى يتغلغل الى عظامك وتتعلم كيف تحبه ، وعندئذ يُثيرك ، وتزايله الصعوبة . ولكنه لم يكن هيّناً ، طبعاً ! »

وهز رأسه في وَهَن ، مبتسماً في وجه الشمس . ثم إنه استشعر النشاط فجأة ، فلوّح بيده ، وبرقت عيناه السوداوان :

— « كان احياناً مروّعاً الى حدّ ما . حتى الأرض لا شك تشعر بشيء ، ألا تظن ذلك ؟ فعندما أبعَدنا في الحفر شاقّين جرحاً بليغاً في جانب الجبل تلقّتنا الأرض في باطنه بغضبة هائجة . كانت أنفاسها حارة ، فغارت قلوبنا ، وثقلت رؤوسنا ، ودبّ الألم في عظامنا . والواقع ان كثيراً من الناس استشعروا الشيء نفسه ! ثم إنها رشقتنا بالحجارة وغرّقتنا بالماء الساخن . وكان ذلك فظيعاً ! وكانت المياه تحول حمراء حين يمسّها الضوء ، في بعض الاحيان ، فيقول والدي إننا جرحنا الارض ، وإنها سوف تغرق جلودنا بدمائها ! وكان ذلك مجرد خيال طبعاً ، ولكن حين تسمع مثل هذا الحديث وأنت موغلٌ في باطن الارض ، وسط الظلمة الخانقة ، والماء الراشح على نحو فاجع ، والحديد الذي يصرف صريفاً قارضاً على جنبات الحجارة — حين تسمع مثل هذا الحديث في مثل هذا الجو يخيّل اليك ان كل شيء ممكن . كان كل ما هنالك غريباً جداً ، أيها السيد . لقد بدونا نحن الرجال اقزاماً صغاراً امام ذلك الجبل الذي كان ينطح السحب ، الجبل الذي كنا نشق النفق في احشائه . . . كان ينبغي لك ان تراه لكي تفهم ما أعني كان ينبغي ان ترى الفجوة المشائبة التي أحدثناها ، نحن الرجال الضئيلي الاجسام ، في جانب الجبل ، وكيف كانت الشمس تُتبعنا بصرها حزينة كئيبة ونحن ندخل الفجوة مع الضحى ونغذّ السير نحو جوف الارض . بل كان ينبغي لك ان ترى الى الآلات ، والى وجه الجبل العبوس الكالح ، وأن تسمع الدمدمة الهادرة بعيداً في اعماق الثرى ، وأصداء الانفجارات التي كانت أشبه شيء بضحكات رجل مجنون ! »

وتفحّص يديه ، ومسّ الحاشية المعدنية المتصلة ببنطلونه الواسع الازرق ، وتنهد في وهن .

ثم إنه أردف باعتزاز :

« الرجال يعرفون كيف يشتغلون ! آه ، سينيور ، إن الرجل على صغره ليستطيع ان يكون قوة لا تُغلب إذا

(*) من كتاب « حكايات من ايطالية » لمكسيم غوركي ، الذي يصدر قريباً في سلسلة « كنوز من القصص الانساني العالمي »

ما اراد ان يعمل . ولسوف يأتي زمان — إنتبهْ جيـــداً لكبلامي — يصبح فيه الرجل — هذا القزم الضئيل الجسم — قادراً على ان يعمل كل ما يحلو له . إن والدي لم يكن يؤمن بذلك بادىء الامر .

« كان يقول : إن اختراق الجبل من بلد الى بلد تحـدٍّ لله الذي فصل ما بين اجزاء الارض بجدران من الجبال، ولسوف ترى ان السيدة العذراء سوف تخذلنا وتتخلى عنا ! ولكنه كان مخطئاً . فالسيدة العذراء لا يمكن ان تتخلى عن كل من يحبها من الناس . وفي ما بعد اخذ ابي يفكر بالطريقـــة نفسها التي افكر بها انا ، لأنه استشعر انه أكبر من الجبل وأشدّ بأساً ، ولكن كان ثمة أوقات كان يجلس خلالها الى المائـــدة ، ايام الأعياد ، وأمامه زجاجـة من الخمر ويحاضرني انا وبعض رفاقي بمثل هذا الكلام :

« يا ابناء الألـه — وكان ذلك أحـد تعابيره الاثيرة لديه ، ولا عجب فقد كان رجلاً صالحاً يخشى الله — يا ابناء الالـه ، ليس في ميسوركم ان تقاتلوا الارض بهذه الطريقة . انها سوف تثأر لجراحاتها وتمتنع عليكم ! سوف ترون : إننا سنشق طريقنا الى قلب الجبل نفسه ، حتى إذا لمسناه قُذف بنا الى اللهب ، لان قلب الارض نارٌ ، كما يعرف كل إنسان ! لقد أُمرنا بأن نحرث الارض لكي نساعد الطبيعة على مخاضها ، ولكننا لا نجرؤ على ان نشوّه وجهها او شكلها . انظروا ، كلما ابعدنا في الجبل غدا الهواء اشد حرارة ، وغدا التنفس اكثر عسراً ... »

وضحك الرجل فى لين ، فاتلاً شاربيه بأصابعه :

« ولم يكن هو وحده الذي فكّر على هـذا النحو . وفي الحق لقد كان ذلك صحيحاً . فكلما أوغلنا في قلب الجبل تعاظمت الحرارة ، وتضاعف عدد المرضى والموتى فينا . وتفجرت الينابيع الحامية تفجراً اشد واقوى ، وتطايرت اجزاء من الارض ضخمة ، وأصيب اثنان من رجالنا ، وهما من لوغانو بالجنون . وفي الليل كان كثير منا يهذون في الشكنات ، ويئنون ويثبون من فُرشهم في نوبة من الذعر ...

« وقال أبي ، وقـد بدا الرعب في عينيه ، وازداد سعاله سوءاً : ألم اكن مصيباً ؟ ألم اكن مصيباً ؟ إنكم أعجز من ان تقهروا الطبيعة ! »

« واخيراً أقعده المرض فلم ينهض من فراشه بعدُ قط . كان رجلاً عجوزاً ذا عزم ، ولقد صارع الموت طوال ثلاثة اسابيع او يزيد ، عنيداً غيرَ متشكٍّ ، شأن الرجل العارف قيمة نفسه .

« وذات ليلة قال لي : لقد انتهت مهمتي ، يا باولو . إعتن بنفسك ، وامضِ الى البيت ، ولتكن السيدة العذراء معك ! ثم ران عليه الصمت فترة طويلة ، وأغمض عينيه ، وانشأ يتنفس في مشقة بالغة . »

وهنا هبّ الرجل واقفاً ، وألقى نظرة على الجبال وتمطّى حتى لقد طقطقت اوتار جسده .

« ثم انه امسك بيدي وجذبني الى قربه وقال : هل تعرف يا باولو ؟ انا احسب ان العمـــل سوف يُنجز ، برغم ذلك . ولسوف نلتقي نحن ، والذين يشقون طريقهم من الجانب الآخر في باطن الجبل . سوف نلتقي ، انت تؤمن بهذا ؟ اليس كذلك يا باولو ؟ فقلت له : اجل انا أؤمن به . فقال : حسن جداً ، يا بني ! هذا شيء صالح . يتعين على المرء ان يؤمن دائماً بما يصنع . يجب ان يكون واثقاً من النجاح ، مؤمناً بالله الذي يساعد ، بفضـل صلوات السيدة العذراء ، الاعمال الصالحة على اختلاف ضروبها . إني اتوسل اليك ، يا بني ، لئن تمّ لكم ما تريدون ، لئن التقى الجمعان في باطن الجبل ان تفد على قبري وتقول : « لقد تمّ ذلك يا ابي ! » ولسوف اعرف عندئذ ! .

« وكان ذلك حسناً ، سينيور ، ولقد وعدته . وقبل يومين من وفاته سألني انا ونفراً من الرفاق ان ندفنه في البقعة الـــتي كان يعمل فيها داخل النفق . لقد تضرع الينا ان نفعل ذلك ، ولكني أحسب انه كان يهذي .

« والتقينا نحن واولئك العمال الشاقّون طريقهم من الجانب الآخر في قلب الجبل بعد ثلاثة عشر اسبوعاً من وفاة والدي . وكان ذلك اليوم يوماً مجنوناً ، يا سيدي ! أوه ، ولا تسل عن الشعور الذي استحوذ علينا عندما سمعنا هناك ، في جـــوف الارض ، وسط الدجنّة ، اصـداء العمل في الشقة الاخرى ، اصداء العمل الذي كان يقوم به اولئك القادمون للقائنا في احشاء

صدر حديثاً

نريد أن نتحرر

بقلم

عدنان الراوي المحامي

وفيه ابحاث عن القومية والحركات العالميـــة — تقدمية الاهداف القومية — ملاحظات في العمل العربي

الارض ، اتفهم ما اقـــول ، سينيور ، تحت ثقل الثرى الهائل الذي كان في مبسوره ان يسحقنا نحن الرجال الصغار ، ان يسحقنا كلنا بضربة واحدة ! .

« وطوال ايام عديدة سمعنا تلك الاصوات ، اصواتاً غائرة كانت تزداد علوّاً ووضوحاً يوماً بعد يوم ، فاستبدّ بنا ابتهاج المنتصرين الضاري ، واشتغلنا مثل العفاريت ، مثـل الارواح الشريرة ، فلم نشعر بالكلال ، ولم نحتج الى تحريض . آه ، لقد كان ذلك حسنـاً ، مثل الرقص في يوم مشمس ، أقسم لك ! وغدونا كلنا رقيقي الحاشية كرام النفس كالأطفال . آه ، لو انك عرفت كم تكون قوية ومتقدة تلك الرغبة التي تحـدو الانسان على ان يلتقي اقرانه في ظلمة ما تحت الارض حيث كان يحتفر كالخلد منذ اشهر متطاولات ! » .

وشاع الدم في وجهه لروعة الذكرى ، واقترب الى مخاطبه اكثر فاكثر منعماً النظر بعينيه الانسانيتين الى ابعد الحـدود في عيني صاحبه ، ثم استأنف حديثه في صوت ليّن سعيد :

« وحين تفتتت ، في النهاية ، آخر طبقة من طبقات الارض المعترضة ، واضاءت الشعلة الصفراء الزاهية تلك الفجوة ، وبصرنا بوجه اسود تفيض من عينيه دمـــوع الفرح ، وشعلات اخرى ووجوه خلفها ، قصفت صيحات النصر ، صيحات البهجة - اوه لقد كان ذلك اسعد يوم في حياتي ! وحين أسترجع ذكراه أحس ان حياتي لم تكن عبثاً ! وكان ذلك عملاً ، عملي انا ، عملاً مقدساً ، ايها السيد ، اقول لك ! وعندما خرجنا الى ضـــوء الشمس خرّ كثير منا على الارض وضغطوا شفاههم عليها ، وهم يبكون . كان شيئاً رائعاً جـداً كحكاية خرافية ! أجل لقد قبّلنا الجبل المهزوم ، قبّلنا الارض . وذلك اليوم استشعرت اني اشد صلة بالارض مني في أيما وقت مضى . لقـــد احببتها ، سينيور ، كما يحب الانسان امرأة !

« وزرت ، طبعاً ، قبر والدي . انا أعـلم ان الاموات لا يسمعون شيئاً ، ومع ذلك فقد زرته ، لانه يتعين على المرء ان يحترم رغبات اولئك الذين يعملون من اجلنـا ، والذين عانوا من المشاق مثل الذي نعاني ، أليس كذلك ؟

« أجل ، أجل ، لقـد قصدت الى القبر ، وخففت الارض بقدمي ، وقلت كما قد امرني :

« لقد تم ذلك يا ابي . لقد انتصر الانسان . لقد تمّ ذلك ! »

نقلها الى العربية
منير البعلبكي

الخضرة الطافرة

يا نبضةً حرّتْ خمـــولَ التربْ
فالثلج ينحـــلُ بزهو الهضـــاب
وخضرةُ المرج بهـــا طفـــرة
تسلّقت اعتابَنـــا والقبـــاب ،
يا مرجُ يفديـــك سريرُ الهـــوى
بطيبه ، والوشوشات العِـــذاب
ويا غمـــامَ الزهـــرِ ايُّ يـــد
شدّت الى الارض غمـــام السحاب
وثقـــلة العتـــمة كيف هوتْ
جدرانُهـا وانشقّ ذاك الحجـــاب
عن قريتي الخضراء ، عن حفنـــة
من أنجم ضاعت بخضر الشعـاب ،
عن مرح الشمس بأحواضنـــا ،
وبيتنا ، عن لونهـــا والخضاب ،
وعن دروب الغاب : يا حنـــوة
الغاب عليها بالظـــلال الرطاب ،
عن غيمة ترقـــد في المنحـــنى ،
وعن جبـــال أبحرت في الضباب .

* * *

يا شِبَعَ العـــين ويا رِيّهـــا
أنسَى ارتمت او نهضت في الرحاب
يا قلبُ يا صفوَ غـــديرٍ جرى
صحوُ السما فيـــه وزهوُ الهضاب
حلمٌ ترى دنيايَ ؟ ام واقـــعٌ ؟
اطيبُ من حلم برته الرغـــاب !

بيروت الجامعة الاميركية
خليل حاوي